



# الرِّثَاءُ

## أَكْثَرُ الْفُنُونِ الشُّعْرِيَّةِ صِدْقًا وَغِنَاءً بِالتَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ

الرِّثَاءُ مِنْ أَبْرَزِ الْفُنُونِ الشُّعْرِيَّةِ وَأَكْثَرَهَا صِدْقًا وَغِنَاءً بِالتَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَتَصْوِيرًا لِحَفِيِّ الْمَشَاعِرِ. كَمَا أَنَّهُ أَحَدُ فُنُونِ الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ الْبَارِزَةِ، بَلْ إِنَّهُ يَتَّصِدَّرُهَا مِنْ حَيْثُ صِدْقِ التَّجْرِبَةِ وَحَرَارَةِ التَّبْعِيرِ وَدِقَّةِ التَّصْوِيرِ، حَيْثُ يَحْتَفِظُ أَدَبُنَا الْعَرَبِيُّ بِتَرَاثِ ضَخْمٍ مِنَ الْمَرَاثِي مُنْذُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى يَوْمِنَا الْحَاضِرِ.

عَنِ النُّوْحِ وَالْبُكَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ بِالْعِبَارَاتِ الْمُسْجِيَّةِ وَالْأَلْفَاظِ الْمُحْزَنَةِ الَّتِي تَهْزُ الْقُلُوبَ وَتُرْسِلُ الدُّمُوعَ وَتَبْعَثُ الْعَبْرَاتِ وَالزَّفَرَاتِ، وَيَبْدُو أَنَّهُ أَقْدَمُ صُورِ الرِّثَاءِ. وَكَانَتْ بَدَائِيَّتُهُ أَرْجَازًا وَقِطْعًا تُؤَلَّفُهَا النَّسْوَةُ حِينَ يَنْدُبْنَ الْقَتْلَى، ثُمَّ تَطَوَّرَتْ الْقِطْعُ إِلَى قِصَائِدَ.

وَيَشْمَلُ هَذَا اللَّوْنُ مِنَ الرِّثَاءِ نَدْبَ النَّفْسِ سَاعَةَ دُنُو الْأَجَلِ، وَنَدْبَ الْأَرْوَاجِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَةَ وَالْأَخْوَاتِ وَمُخْتَلَفِ ذَوِي الْأَرْحَامِ وَالْأَقْرَبَاءِ وَالْأَعْزَاءِ مِنْ الْأَصْدِقَاءِ. وَكَذَلِكَ يَشْمَلُ بُكَاءَ الشُّعْرَاءِ شَخْصَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصَحَابَتِهِ وَخُلَفَاءَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، كَمَا يَشْمَلُ رِثَاءَ الْحَوَاضِرِ وَالِدُولِ وَالْأَوْطَانِ.

وَأَمَّا التَّابِينُ: فَلَيْسَ بِنُوحٍ وَلَا نَشِيحٍ كَالنَّدْبِ، بَلْ هُوَ أَقْرَبُ إِلَى تَعْدَادِ الْخِصَالِ

وَقَدْ شَارَكَتْ قِصِيدَةُ الرِّثَاءِ مُخْتَلَفِ الْفُنُونِ الشُّعْرِيَّةِ الْأُخْرَى فِي تَطَوُّرِهَا الْفَنِّيِّ أَسْلُوبًا وَصُورًا وَمَعَانِي وَعِنَايَةً بِالتَّرْصِيعِ الْبِدِيعِيِّ، وَاتِّصَافًا بِوَحْدَةِ الْبَيْتِ أَوْ الْوَحْدَةِ الْمَوْضُوعِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُ تَطَوَّرَتْ خِلَالَ الْمَرَاكِحِ نَفْسَهَا الَّتِي مَرَّتْ بِهَا فُنُونُ الْوَصْفِ وَالْمَدْحِ وَالْهَجَاءِ وَالْحِمَاسَةِ وَالْفَخْرِ وَالغَزَلِ.

وَيَنْقَسِمُ الرِّثَاءُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَلْوَانٍ فَرْعِيَّةٍ هِيَ: النَّدْبُ، وَالتَّابِينُ، وَالْعِزَاءُ.

أَمَّا النَّدْبُ: فَهُوَ بُكَاءُ النَّفْسِ سَاعَةَ الْإِحْتِضَارِ وَبُكَاءُ الْأَهْلِ وَالْأَقْرَابِ، وَكُلُّ مَنْ يَنْزِلُ مِنْزَلَةَ النَّفْسِ وَالْأَهْلِ مِنَ الْأَحْبَاءِ وَالْإِخْوَةِ الْفَكْرِ وَالْإِتِّجَاهِ وَالْمَشْرَبِ، بَلْ يَمْتَدُّ إِلَى رِثَاءِ الْعَشِيرَةِ وَالْوَطَنِ وَالِدَوْلَةِ حِينَ تَدُولُ أَوْ تُصَابُ بِمِخْنَةٍ مِنَ الْمِخْنِ الْقَاصِمَةِ الْمُحْزَنَةِ. وَهُوَ عِبَارَةٌ

وَصُورٌ مَعْرُوفَةٌ. وَعِنْدَ تَطَوُّرِ مُخْتَلَفِ فُنُونِ الشُّعْرِ نَتِيجَةً مَجِيءِ الْإِسْلَامِ وَمَا تَفَرَّعَ عَنْهُ خِلَالَ الْأَجْيَالِ الطَّوِيلَةِ الْمُتَعَاقِبَةِ مِنْ تَيَّارَاتِ فِكْرِيَّةٍ وَمَذْهَبِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَأَدْبِيَّةٍ، تَطَوَّرَتْ صُورُ الرِّثَاءِ وَنَهَاجُهُ وَتَعَدَّدَتْ دَوَاعِيهِ وَبَوَاعِيُهُ. فَإِذَا جِئْنَا نَوَازِنَ بَيْنَ عَنَاصِرِ الْمَرَثِيَّةِ فِي نِهَاجِ تَمَثُّلِ تَدْرُجِ الزَّمَنِ وَنُمُوِّ الْعَقْلِ وَتَعَقُّدِ الْحَيَاةِ، خَرَجْنَا بِحَقَائِقَ يُمَكِّنُ رِضْدَهَا فِي رَسْمِ بَيَانِيٍّ، بَدَائِيَّتُهُ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ وَنَهَائِيَّتُهُ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ، وَبَيْنَ الطَّرْفَيْنِ خَطٌّ يَأْخُذُ فِي الْإِرْتِفَاعِ فَيَكُونُ أَعْلَاهُ عِنْدَنَا الْيَوْمَ.

وَطَبِيعِيٌّ أَنْ تَتَفَوَّقَ النِّسَاءُ عَلَى أَكْثَرِ الرَّجَالِ - إِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّهُمْ - فِي أَشْعَارِ الْمَرَاثِي، تَفَوُّقًا لَا نَجِدُهُ فِي فَنِّ آخَرَ غَيْرِ هَذَا الْفَنِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ الْمَرْأَةَ بِتَكْوِينِهَا النَّفْسِيِّ وَالْعَاطِفِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ أَكْثَرُ اسْتِعْدَادًا لِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الشُّعْرِ؛ فَعَاطِفَتُهَا أَسْرَعُ انْبِعَاشًا وَأَعَمَّقُ شُعُورًا، وَقُدْرَتُهَا عَلَى الْبُكَاءِ وَبَعَثِ مَكَامِنِ الشُّجُونِ وَاللُّوْعَةِ لَا تُدَانِيهَا قُدْرَةُ الرَّجَالِ.

وَلَا يُمَكِّنُنَا أَنْ نَحُدِّدَ عَلَى وَجْهِ الدَّقَّةِ أَوَّلَ مَنْ رُثِيَ، فَذَلِكَ أَمْرٌ غَايَةٌ فِي الصُّعُوبَةِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ عَاشَ

مُنْذُ بَدَائِيَّةِ حَيَاتِهِ مَعَ الْكَوَارِثِ وَالنَّوَائِبِ وَالْحَوَادِثِ الْمُؤَلَّةِ الَّتِي تَهْزُ الْقُلُوبَ هَزًّا شَدِيدًا، وَكَانَ لِنَلِكِ الْحَوَادِثِ تَأْثِيرُهَا الْعَظِيمُ فِي النَّفْسِ.

وَإِزْجَاءِ النَّشَاءِ. إِنَّهُ تَنْوِيهِ وَإِسَادَةٌ بِشَخْصِيَّةٍ لَامِعَةٍ، أَوْ عَزِيْزِ ذِي مَنْزِلَةٍ فِي عَشِيرَتِهِ أَوْ مُجْتَمَعِهِ، وَهُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ حُزْنِ الْجَمَاعَةِ عَلَى الْفَقِيدِ أَكْثَرَ مِنْهُ تَعْبِيرًا فَرْدِيًّا عَنْ ذَلِكَ. وَالْعِزَاءُ: هُوَ مَرْتَبَةٌ عَقْلِيَّةٌ فَوْقَ مَرْتَبَةِ التَّابِينِ. إِذْ هُوَ نَفَازٌ إِلَى مَا وَرَاءَ ظَاهِرَةِ الْمَوْتِ وَانْتِقَالٌ الرَّاحِلِ، وَتَأْمُلٌ فِكْرِيٌّ فِي حَقِيقَةِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ. وَتَأْمُلٌ يَنْطَلِقُ إِلَى آفَاقِ فِلْسَافِيَّةٍ عَمِيقَةٍ فِي مَعَانِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَالْخُلُودِ.

هَذِهِ الْأَلْوَانُ الثَّلَاثَةُ مِنْ فَنِّ الرِّثَاءِ لَا تَفْصِلُهَا حُدُودٌ فَاصِلَةٌ، وَلَا يَقُومُ مِنْهَا لَوْنٌ دُونَ الْاسْتِنَادِ إِلَى الْآخِرِ وَالْأَتْسَامِ بِنِعْضِ خِصَائِصِهِ. وَلَكِنْ إِذَا غَلَبَ مِنْهَا لَوْنٌ أَعْطَى الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ طَابِعَهُ الْعَامَّ، وَوَسَمَهُ بِمِيسَمِهِ الْخَاصِّ. عَلَى أَنَّ كَثِيرًا مَا تَتَدَاخَلُ تِلْكَ الْأَلْوَانُ فِي عَمَلِ أَدَبِيٍّ وَاحِدٍ، لِأَسِيًّا فِي رِثَاءِ قَوَاعِدِ الْمُلْكِ وَالِدُولِ الزَّاهِرَةِ وَالْعُهُودِ الْمَجِيدَةِ مِنْ تَوَارِيخِ الْأُمَّةِ.

إِنَّ مَا انْتَهَى إِلَيْنَا مِنْ تَرَاثِ الْمَرَاثِي كَثِيرٌ جَدًّا، وَيُمَثِّلُ مُخْتَلَفِ الْعُصُورِ الْأَدْبِيَّةِ وَمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ وَالْإِتِّجَاهَاتِ

الْفِكْرِيَّةِ. وَإِنَّ أَقْدَمَ تِلْكَ الْمَرَاثِي مِمَّا أَبَدَعَتْ قَرَائِحُ الْجَاهِلِيِّينَ، وَصَلَّتْنَا نَاضِجَةً مُحْكَمَةً، قَدْ تَجَاوَزَتْ طُفُولَتَهَا وَمَرَاكِحَ مُحَاوَلَاتِهَا الْبَدَائِيَّةِ، وَصَارَتْ ذَاتَ قَوَالِبَ وَصِيغٍ مُحَدَّدَةٍ، وَأَسَالِيْبَ

## أَدَبُنَا الْعَرَبِيُّ يَحْتَفِظُ بِتَرَاثِ ضَخْمٍ مِنَ الْمَرَاثِي مُنْذُ الْجَاهِلِيَّةِ إِلَى يَوْمِنَا الْحَاضِرِ